YUYUN ROHMATUL UYUNI

نشأة علم الصرف (الطور الأول)

Abstrak

Sejak penyebaran agama Islam, perkembangan studi bahasa Arab dan linguistik Arab dimulai pada abad ke-7 Masehi dengan tumpuan pada kajian kitab suci Al-Qur'an. Kitab suci Al-Qur'an merupakan konsep dasar pengembangan bahasa Arab yang fasih dan murni tanpa dicampuri lahn, dialek-dialek non Arab, sehingga mendapat perhatian para linguis untuk mencoba melacaknya. Mengapa studi bahasa linguistik Arab berlangsung dalam terminologi bahasa Arab Al-Qur'an ? kemurnian bahasa Arab sebagai motif yang menjadi pendorong bagi ahli bahasa Arab untuk melahirkan suatu disiplin ilmu sharf yang menggeluti bidang leksikografi. Dipelopori oleh Mu'adz bin Muslim Al-Hira' sebagai pencetus pertama untuk melahirkan suatu disiplin ilmu sharf yang mempelajari bidang leksikografi bahasa Arab, melalui infleksi, deklinisi, derivasi leksikat atau kata. Infleksi dan verbum bahasa Arab berdasarkan sistem tiga bunyi konsonan sebagai akar. Umpamanya /ق، ر، أ/ "membaca" menjadi /قرأ/ "ia telah membaca" dan /قراءة/ "bacaan" dan sebagainya. Puncak tata bahasa Arab terjadi pada akhir abad ke 8 atau awal abad 2 hijriyah yang terpusat di Basrah. Para linguis Arab di Basrah mendapat julukan kelompok aliran Basrah yang meletakan dasar yang kokoh akan kereguleran dan sistematisasi dari bahasa Arabb sebagai alat tutur yang logis tentang fenomena dunia. Mereka sudah pasti mendapat pengaruh konsep analogi dari zaman Yunani. Disamping itu, ada pula satu kelompok linguistik Arab di Kuffah yang memberikan perhatian kepada keanekaragaman bahasa. Beberapa kelompok linguis Arab di Kuffah berkonsep anomah. Tulisan ini mencoba melirik tenang alasan-alasan timbulnya ilmu sharf sebagai disiplin ilmu tersendiri.

Kata kunci : *Sharf, Wadl'i, Basrah, Kuffah*

تمهيد

أعتقد أنّ القارئ يتفق معي في أن العناية باللغة العربية نطقا وكتابة مظهر من مظاهر حضارة الأمة، فإذا اهتزت اللغة وضعفت ضعف كل شيء فيها.

وكيف لا ؟ ! واللغة هي وعاء الفكر والثقافة ققديما وحديثا والوسيلة لفهم هذا الفكر واستيعابه هي إتقان اللغة.

وكانت علوم اللغة العربية، وعلى رأسها علما النحو والصرف الذين تبنى عليهما كل العلوم، وكان الهدف من دراستها هو تربية الملكة العربية السليمة التي تجعل غير الفصيح ينسح على منوال الكلام الفصيح، الذي ورد عن العرب، بالإضافة إلى فهم أساليب العربية، والوقوف على أسرارها وتذوقها، وفهم القرآن الكريم، والوقوف على بعض أسرار عظمته، وإعجازه، وتذوق أساليبه وإقامة اللسان به وعصمته من اللحن فيه.

ولما لم تكن قواعد الصرف مخترعة على غير مثال. ولكنها مأخوذة من أساليب العرب، وكان السماع هو الأصل في بناء تلك القواعد، كان الواجب لتربية تلك الملكة على أمرين:

أحدهما : معاينة النصوص، والأساليب، التمرس بها حتى يعرف الدارس فنون الاساليب وألوان الكلام الفصيح وضروبه.

والثاني : دراسة مواقع الكلام في هذه الأساليب، ومعرفة القواعد، والحكم الذي يضبط ذلك.

وفي هذا البحث عرضت أسباب وضع علم الصرف، ثم عقبت ذلك بدراسة حول واضع هذا العلم موضحةً الإختلاف الذي دار بين العلماء فيه.

وبعد....فحسبي أن هذا البحث محاولة حاولتها فإن تكن انتهت بي إلى الغاية التي تمثلها فما أبالي، وإن تكن قصرت بي عن بلوغها فلنتذكر قول شاعر الكوفة أبي العتاهية:

ما كل ما يتمنى * المرء يدركه

(ربنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير)

البحث

اختلف العلماء كثيرا في تحديد نشأء علم الصرف، ولكن إذا أغفلت الآن ذلك الخلاف ورجعت من عهد سيبويه. وذكره للصرف – إلى السنوات الأولى من صدر الإسلام تبدت لي ظاهرة واضحة من شيوع اللحن اللغوي الصرفي وهاهي ذا بعض الأخبار التي تجلى ذلك.

فيرى أنه كان بالبصرة له جارية تسمى ظمياء، فناداها، يا ضمياء بالضاد، فقال له ابن المقفع، قل يا ظمياء، فناداها : يا ضمياء. فلمّا غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاث، قال له: هي حارتي أو جاريتك ؟[1].

وكان ابو مسلم الخراسانى حسن الألفاظ، جيد المعاني وكان إذا أراد أن يقول قلت لك، قال كلمت لك[2].

ويزيد بن معاوية أخذت عليه زلة، فقد ذكر على المنبر : هذه الضبعة العرجاء، فاغتدت عليه لحنا، لأن الأنثى يقال لها : الضبع ويقال للذكر : الضبعان.[٣]

فهذه النماذج يدرك قدمها، وتؤكد – على ما يقال في صدق مضمونها – إنّ السليقة العربية قد شابتها مظاهر العجمة، فاختلت لدى القدماء – عربا أو مولدين – ملكة اللغة، وندت عليهم سقطات صرفية تهدد صفاء العربية وسلامتها.

أسباب وضع علم الصرف

لما كانت العلوم في الأمم لا تظهر فجأة، بل تأخذ في الظهور رويدا رويدا حتى تستوى على سوقها، كان ذلك مدعاة في كثير من الأمر لأن تغمض نشأة بعض العلوم وأن يختلف على الناس واضعوها المبكرون.

وهذا نفسه ما حدث فيمن نسبت إليهم الخطوات الأولى في وضع الصرف العربى فقد احتدى ابو الأسود الدؤلي الأصول التي وضعها له الغمام علي في تعليقته[٤] أو "صحيفة" فقد كان كلما وضع بابا جديدا عرضه عليه[٥]، حتى حصل في كتابه المختصر ما فيه الكفاية وبذلك استحق أن يكون كما قال ابن سلام، أول من استن العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها[٦].

ثم اختلف إليه الناس، ففرع لهم ما كان أصله.[٧]

وإذا قلت : إن النحو قد اكتمل في البصرة في القرن الأول الهجري، وبداية القرن الثاني فإن هذا القول يمكن أن يصدق على الصرف ونشأته – أيضا – لأن الأسباب التي دعت إلى نشأة النوهي الأسباب التي دعت إلى نشأة علم الصرف، ويمكن أن نجمل هذه الأسباب في :

١- شيوع اللحن في بنية الكلمة

فقد كان المسلمون يحرصون كل على أداء نصوص الذكر الحكيم أداء صحيحا إلى أبعد حدود السلامة والفصاحة، خصوصا بعد أن أخذ اللحن يشسع على الألسنة، وكان اللحن في صدر الإسلام لا يزال قليلا بل نادرا، وكلما تقدمنا مع الزمن يتسع شيوعه على الألسنة. ومن هذا ما وراء ابن أبي سعد الوراق، قال حدثنا علي ابن محمد الهاشمي، قال: سمعت أبي قال : كان بدء ما وضع أبو الأسود الدؤلى النحو، أنه مربه سعد – وكان رجلا فارسيا قدم البصرة مع أهله. وكان يقود فرسه – فقال : ما لك يا سعيد ؟ ألا تركب ! فقال : فرسي ضالع فضحك به من حضره.

قال أبو الأسود : هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه وصاروا لنا أخوة فلو علمناهم الكلام، فوضع باب الفاعل والمفعول[٨].

وازداد اللحن فشوا وانتشارا باختلاط العرب بالأعاجم اختلاطا أدخل الضيم والوهن على ألسنتهم وفصاحتهم، ولا

شك أن إبدال سعد من الظاء ضادا في قوله "ضالع" بدل "ظالع" هو من مسائل علم الصرف، لأنه مما يحص بنية الكلمة.

ويذكر أن أول لحن سمع بالبادية، قولهم: هذه عصاتى، والصواب: عصاى[٩]. وروى أن أبا عمرو بن العلاء سمع رجلا ينشد قول المرقش الاصغر من الطويل:

ومن يلق خيرا يحمد الناس أعمر * ومن يغولا يعدم على الغي لائما

فقال : أقومك أم أتركك تسكع في طعمتك ؟ فقال : بل قومنى. فقال : قل: ومن يغو، الا تري إلى قوله تعالى : (وعصى آدم ربه فغوى).[١٠]

٢- اعتزاز العرب بلغتهم اعتزازا شديدا

وهذا الاعتزاز جعلهم يخشون عليها من الفسا حين امتزجوا بالأعاجم مما جعلهم يحرصون على رسم أوضاعها خوفا من الفناء والذوبان في اللغات الأعجمية.

٣- إحساس الشعوب المستعربة بالحاجة الشديدة لمن يرسم لها أوضاع العربية.

في إعرابها وتصريفها حتى تتمثلها تمثلا مستقيما، وتتقن النطق بأساليبها نطقا سليما.

٤- المناظرات والمحاورات التي كانت تثار في مجالس العلماء والولاة.

فيرى المتتبع لتراجم العلماء في البصرة والكوفة أن كل واحد منهم قدخب ووضع فيها، وأن المشادة بين المدرستين ما فترت حينا. إذ كانت تثيرها الرغبة في الوصول إلى الحقائق والاعتزاز بالنفس والعصبية للبلد، وكانت هذه المناظرات والمحاورات تصير العام، وحيث يصير العلماء فحب الغلبة جبلى في الإنسان في مظاهر الحياة المختلفة، فكيف العلم الذي هو أنبل الغايات، وأسمى المقاصد ؟

نعم إذا كان مبعث المناظرة والمحاورة محض العلم فحبذا الغرض والمطلب. لكنها هنا قد شيبت بالعصبية فكانت حربا ضروسا غير أنها محمودة المغبة على كل حال لما تسفر عنه من نتائج الثرائح المكونة فما نعمت اللغة وغنيت إلا من هذا السجال العلمى.

ومن هذا المناظرات والمحاورات تلك التي ذكرها السيوطي في كتابه الأشباه والنظائر في النسب إلى "البحرين، والحصنين". وكانت في حضرة الخليفة المهدى قال: حدثنا ابو عبد الله اليزيدى قال: كان ببلد مع المهدى في شهر رمضان، قبل أن يستخلف بأربعة أشهر فتذاكروا ليلة عنده النحو والعربية. فبعث إلي وإلى الكسائى فصرت إلى الدار. وإذا

الكسائى بالباب قد سبقى، فقال : أعوذ بالله من شرك يا أبا محمد.

فقلت : لا توتى من قبلي، أو أوتي من قبلك، فلما دخلنا على المهدى، أقبل علي فقال : كيف نسبوا إلى البحرين، فقالوا : بحرانى، وإلى الحصنين، فقالوا : حصنى؟[11]

فقلت : أيها الأمرين، لو قالوا في النسب إلى البحرين: بحرى لألتبس، فلم يدر النسبة إلى البحرين وقعت، أم إلى البحر، فزادوا ألفا ونونا للفرق بينهما كما قالوا في النسب إلى الروح: ورحانى، ولم يكن للعصنين شيئ يلتمس به فقالوا: حصني على القياس.

فسمت الكسائى يقول لعمر بن بزيع[12] : لو سالنى الأمير لأجبته بأحسن من هذه العلة.

فقلت : - اصلح الله الأمير - إن هذا يزعم أنك لوسألته لأجاب بأحسن من جوابي.

فقال قد سألته. فقال: - اصلح الله الأمير - كرهوا أن يقولوا حسنانى، فيجمعوا بين نونين، ولم يكن في البحرين إلا نون واحدة، فقالوا بحرانى، لذلك، فقلت : فكيف تنسب إلى رجل من بنى جنان ؟ إن لزمت قياسك، قلت: جنى، فجمعت بينه وبين المنسوب إلى الجنّ وإن قلت : جنانى، رجعت ع. قياسك، وجمعت بين ثلاث نونات.[13]

وكان اليزيدى يفرق في النسب بين ماله مفرد وما ليس له مفرد.

٥- رقى العقل العربي ونمو طاقته الذهنية.

هذا النمو: أعده للنهوضة برصد الظواهر اللغوية، وتسجيل الرسوم الصوفية تسجيلا تطرد فيه القواعد وتنتظم فيه الأقيسة انتظاما يهيء لنشوء علم الصرف ووضع قوانينه الجامعة المشتقة من الاستقصاء الدقيق للعبارات والتراكيب.

كل ذلك معناه أن بواعث متشابكة منها الديني والقومي العربي، والاجتماعى دفعت دفعا إلى وضع علم الصرف.

ومع هذا للعلماء أقوال مختلفة في وضع علم الصرف وواضعه ومصدر اختلافهم هو ما يحمل كل منهم من مدلول لهذا العلم، وكان للعلماء مذهبان في تحديد تاريخ وضعه ونشأته.

١. فقد زعم بعضهم إلى أنه يعود إلى ما قبل الجاهلية.

٢. وذهب آخرون إلى أن واضع علم الصرف هو معاذ بن مسلم الهراء.

أما القول الأول

فقد بسطه أحمد بن فارس في معرض جزمه أن اللغة العربية وعلومها توقيف من عند الله تعالى، لا اصطلاح ولا اختراع، ومما قاله في ذلك "وزعم قوم أن العرب العاربة.....

لم يعرفوا نحوا ولا إعرابا، ولا رفعا، ولا نصبا، ولا همزا ولا جرا.

قالوا: والدليل على ذلك ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له : أتهمز إسرائيل ؟ فقال : إني إذا لرجل سوء. قالوا: وإنما قال ذلك، لأنه لم يعرف من الهمز إلا الضغط والعصر...

قلنا، الأمر في هذا بخلال ما ذهب هؤلاء.....ومذهبنا فيه التوقيف[١٤].

فنقول : إن أسماء هذه الحروف داخلة في الأسماء التي أعلم الله – جل شأنه – آدم عليه السلام والذي نقول في الحروف هو قولنا في الإعراب والعروض.

فإذا قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود الدؤلى أول من وضع العربية وان الخليل بن أحمد أول من تكلم في العروض !

قيل له : نحن لا ننكر ذلك، بل نقول : إن هذين العلمين قد كانا قديما، وأتت عليهما الأيام، وقلا في أيدى الناس ثم جددهما هذان الإمامان. فإن قيل : فقد سمعناكم تقولون: إن العرب فعلت كذا و لم تفعل كذا، من أنها لا تجمع بين ساكنين، ولا تبتدئ بساكن، ولا تقف على متحرك، وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة، وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد !

قلنا : نحن نقول : إن العرب تفعل كذا، بعد ماوطأنا أن ذلك توقيف حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الاول.

ومن الدليل على عرفان القدماء – الصحابة وغيرهم – بالعربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله الصرفيون في ذوات الواو، والياء والهمز، والمد، والقصر، فكتبوا ذوات الياء بالياء، وذوات الواو و لم يصور والهمز إذا كان ما قبلها ساكنا في مثل الخبء، والدفء، والملء فصار ذلك كله حجة[١٥].

وأما القول الثاني:

فقد ذكر ابن مالك في التصريح أن العلماء أجمعوا عليه، وأيد السيوطى ذلك في قولين مختلفين. قال في الأول : واتفقوا على أن معاذ الهراء أول من وضع التصريف[١٦].

وزعم في الثاني : أنه – اي السيوطي – هو الذي تنبه لذلك، فقال في ترجمة معاذ الهراء : هو نحوي مشهور، وهو أول من وضع التصريف[١٧].

واستدل على ذلك بما رواه الزبيدى، فقد أورد السيوطي عنه : أن أبا مسلم قد نظر في النحو، فلما أحدث الناس التصريف لم يحسنه، وانكره مهجا أصحاب النحو فقال من البسيط:

قد كان أخذهم فس النحو يعجبني * حتى تعاطو كلام الزنج والروم

لما سمعت كلاما لست أفهمه * كأنه زجل الغربان واليوم

تركت نحوهم والله يعصمني * من التفحم في تلك الجرثيم

فأجابه معاذ الهراء، بقوله:

عالجتها أمرد حتى إذا * شبت، و لم تحسن أبا جادها

سميت من يعرفها جاهلا * يصدرها من بعد إيرادها

سهل منها كل مستعصب* طود علا القرن من أطوادها[١٨]

وكان أبو مسلم ذ جلس إلى معاذ بن مسلم الهراء، فسمعه يناظر رجلا في النحو "الصرف" فقال معاذ : كيف تقول من ((تؤزم أزا)).[١٩] يا فاعل افعل، من ((وإذا المؤردة سئلت))[٢٠].

فأجاب الرجل معاذا، فسمع أبو مسلم كلاما لم يعرفه، فقام عنهم، وقال الأبيات. وأورد السيوطي هذا النص بتصرف يسير، ثم عقب عليه بقوله ومن هذا لحت أن أول من وضع التصريف هو معاذ هذا.[٢١]

وأرى أن مصدر هذا الخلاف بين ما ذهب إليه ابن فارس، وما زعمه ابن مالك والسيوطي في تاريخ وضع التصريف ونشأته، وإنما هو الإختلاف في مدلول التصريف لدى كل من الجانبين.

والذي يستنبط من نص ابن فارس أن معنى التصريف لديه هو ما بنته العرب من الكلمات.

ولذلك أدرجه في االعربية، ونسب إلى الجاهلين معرفتهم به ثم جعله من العلوم التوقيفية التي علم الله آدم إياها.

أما السيوطي فقد اعتمد قصة معاذ، وادعى أنه استظ منها تقدم معاذ الهراء في وضع علم الصرف، وكان قد ذكر اتفاق العلماء على هذه النتيجة. وإذا كان اتفاق العلماء على تقدم معاذ مبنيا على هذه القصة فإن فيه نظرا. لأن قصة معاذ هذه واضحة الدلالة على المعنى بالصرف فيها إنما هو مسائل التمرين ولعله وضع أصول مسائل التمرين هذه هي التي كان المتقدمون يسمونها الصرف.

فترسم العلماء خطاه فيها، وكان أن نسب إليه وضع علم الصرف. والحق أن مسائل التمرين هذه ليست أصل الصرف، وقواعده إنما هي ثمرة سائر موضوعاته وفروعه، لأنها تعتمد في بنائها على المعرفة التامة بالميزان الصرف والزوائدا والإبدال، والإعلال والإدغام وتخفيف الهمز.... وتستمد نتائجها من إتقان تلك الجوانب ووضوحها ورسوخ جذورها.

وإن في قول معاذ (يا فاعل افعل) ما يؤكد أن الميزان الصرفي كان إذ ذاك معروفا شائعا بين الصرفيين بحيث لا يحتاج ذكره إلى تفسير وإيضاح.

وفي إجابة الرجل معاذا على مسألته هذه دليل قاطع على أن مسائل التمرين كانت متداولة بين بعض الصرفيين في ذلك العصر.

كما أن مسائل التمرين هي التطبيقات العمدية لأصول علم الصرف ونظرياته ومحال أن تكون هذه المسائل

سبق في الوجود من النظريات والأصول التي تمدها بالقواعد والوسائل التطبيقية، وعلى هذا تكون نسبة علم الصرف — حينئذ — إلى الهراء باعتماد هذه القصة فيها تجوز لا يتفق ومنطق تطور العلوم.

أضف إلى هذا أن في قول الزبيدى: "أحدث الناس التصريف"[٢٢] ما يبعد وضع علم الصرف من معاذ الهراء، ويجعله لغيره من العلماء. فإذا كنت تظن أن في إنكار أبي مسلم على الهراء وهجائه أصحاب النحو ما يؤيد قول السيوطي فاعلم أن أبا مسلم لم يكن عالما نحويا مذكورا إنه "قد نظر في النحو" كما قال الزبيدى و لم يتفق ويبرع فيه، ولذلك سمع في هذه المسائل كلاما لم يفهمه فأنكره، وفي قول الهراء لأبي مسلم:

عالجتها أمرد حتى إذا * شبت و لم تعرف أبا جادها

سميت من يعرفها جاهلا * يصدرها ثم بعد إيرادها

ما يؤيد أن أبا مسلم هذا قد نظر في الصرف أيضا، ولكـــنه لم يستطع أن يتقنه فأعرض عنه، وهذا هو معنى قول الزبيدي "فلما احدث الناس التصريف لم يحسنه، وأنكره، فهجا أصحاب النحو".

ولـــو كـــان أبو مسلم من كبار أصحاب النحو لما هجـــاهم. ثم من هذا المدعو أبا مسلم ؟ لقد عرف به الزبيدي بقوله : هو أبو مسلم مؤدب عند الملك بن مروان".

وذكره في الطبقة الأولى من النحويين الكوفيين.

أما الزجاجي فقد ذهب إلي أن ربا مسلم هذا هو الخرساني، صاحب الدعوة للعباسيين[٢٣]. فإذا صح ما ذهب إليه الزجاجي، كان جهل أبي مسلم بالتصريف أمرا متوقعا، لأنه — على أدبه وبيانه — لم يكن من أرباب صناعة النحو.

بل إن بعض المؤرخين ذهب إلى أبعد من هذا، فجعل صاحب هذه القصة مع معاذ أعرابيا مجهولا كان يجلس إلى الكسائي.

قال ياقوت الحموى:[٢٤] حدث السلامى قال: حضر مجلس الكسائى أعرابي، وهم يتحاورون في النحو، فأعجبه ذلك، ثم تناظروا في الصرف، فلم يهتد إلى ما يقولون، ففارقهم وأنشأ يقول : من البسيط:

ما زال أخذهم في النحو يعجبني * حتى تعاطوا كلام الزنج والروم

بمفعل فعل، لا طالب من كلم * كأنه زجل الغربان واليوم

وفي هذا، كما أرى ما قد يرفع عن معاذ أنه بطل هذه القصة وبطل أبداع علم التصريف.

ثم إذا كان أبو مسلم هذا مؤدبا لعبد الملك بن مروان (٢٦ — ٨٦ هـ) فهذا يعنى أن مسائل التمرين كانت موضع دراسة وبحث منذ منتصف القرن الأول الهجري أي في عهد أبي الأسود الدؤلي، وهو أمر ليس من اليسير قبوله.

وأخيرا، فإن الهراء لم يكن – كما قال إسحاق بن الحصاص – من أعلام النحويين[٢٥] ولكنه كان صالح العالم بالعربية، ولو كان حقا مبدع علم الصرف لكان علما من أعلام النحو المذكورين.

وخير تفسير لقوله الزبيدي، هو أن العلماء كانوا في عهد أبي مسلم، والهراء قد حدثوا مسائل التمرين، وتوسعوا فيما يصدر عنها من تكلف وتحمل ونقص فكان أن أنكر أبو مسلم عليهم ذلك. وجعله من رطانة الأعاجم زجل الطيور.

قد كان أخذهم في النحو يعجبني * حتى تعاطوا كلام الذنج والروم

وهكذا يتبين لنا أن ما ذهب إليه كل من ابن فارس، وابن مالك، والسيوطي لم يستطع أن يحدد لنا نشوء علم الصرف، وبذوره الأولى. فإن ما بنته العرب في جاهليتها من أسماء، وصفات، وأفعال لم يكن وليد علم علم بأصول مستنبطه محددة وإنما هو بديهة وارتجال وما كان يثيره الهراء ومعاصروه، من مسائل التمرين، ليس إلاّ ثمرة لعلم ناضج مكتمل الأسس والبنيات.

ولكن إذا رجعنا ما ظهر من اللحن اللغوي الصرفي، منذ صدر الإسلام يتبين لنا أن وضع علم الصرف يجب أن يكون في ذلك العصر، فلا غروأن ينسب إلى الإمام علي، وأبي

الأسود الدؤلى، الشروع في رسم أصول العربية في النحو والصرف.

فقد ذكر الحسن بن مسعود اليوسى — فيما نقله عنه الشيخ علي الصالح — أن الإمام علي بن أبي طالب هو الذي وضع مبادئ علم الصرف.[٢٦]

وذلك أنه فظن إلى شيوخ أخطاء في أبنية الكلمات، وهيأتها، فوضع في علم البناء بابا أو بابين، فكان ذلك أساس علم الصرف.

لا غرو في هذا، لأن ثمة إجماعا لدى المتقدمين على أن واضع علم العربية هو أبو الأسود الدؤلي. وأنه أخذه عن الإمام علي رضي الله عنه.

وقد أوضح ذلك المبرد حيث قال : سئل أبو الأسود الدؤلي عن فتح له الطريق إلى الوضع في النحو، وأرشده إليه فقال : تلقيته عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.[٢٧]

وقد فصل ذلك أبو الأسود في رواية مشهورة له، قال فيها: "دخلت على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، عليه السلام، فرأيته مطرقا مفكرا، فقلت : فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ قال : إني سمعت ببلدكم هذا لحنا فأردت أن أضنح كتابا في أصول العربية. فقلت : إن فعلت هذا يا أمير المؤمنين أحييتنا، وبقيت فينا هذه اللغة. ثم أتيته بعد أيام فألقى إلى صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم : الكلام كله اسم، وفعل وحرف.

فالإسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف : ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل.

ثم قال لي : تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة: ظاهرة، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا بمضمر. قال : فجمعت منه أشياء، وعرضته عليه: وكان من ذلك حروف النصب فكان منها: إن، وأن، وليت، ولعل، وكأن، و لم أذكر لكن.

فقال لي: لم تركتها ؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بل هي منها فزدها فيها. قال: وكنت كلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه رضي الله عنه. إلى أن حصلت على الكفاية. فقال: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت![٢٨].

إن ما يرجحه المنطق في هذا الموضوع هو أن الإمام عليا وضع في صحيفته أو أبا الأسود الدؤالي وضع في الكتاب لمختصر المنسوب إليه أبوابا تعالج بعض المسائل الصرفية. ولعل مما يؤنسني فيما ذهبت إليه أن الفخر الرازي قال في كتابه المحرر في النحو "رسم علي" رضي الله لأبي الأسود الدؤلي باب إن وباب الإضافة، وباب الإمالة. ثم صنف أبو الأسود باب العطف وباب النعت ثم صنف باب التعجب وباب الاستفهام...

وقد بسط صاحب مفتاح السعادة هذه الرواية بقوله: يروى أنه دخلت بنت خويلد الأسودى على معاوية، فقالت: إن أبوي مات، وترك لي مالا – بإمالة مالا – فاستقبح معاوية ذلك، وبلغ الخبر عليا – كرم الله وجهه – فرسم لأبي الأسود الدؤلي باب إن، وباب الإضافة وباب الإمالة.

فعلم من هذا أن أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي، أخذه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأنت ترى أن ذكر باب الإمالة ههنا يعنى أن بعض مسائل الصرف هي مما تضمنته جهود رائدى علوم العربية. وأوضح من هذا كله دلالة، أن الإمام عليا كان يشيع جنازة فقال له قائل: من المتوفى ؟ بلفظ اسم الفاعل بكسر الفاء المشدودة وهو يسأل عن الميت فقال : الله تعالى منبها له بذلك على أنه يجب أن يقول: من المتوفى ؟ المتوفى بفتح الفاء المشدودة.

وقد كان هذا أحد الأسباب التي دعته إلى استخراج النحو، فأمر أبا الأسود الدؤلي بذلك. وكان فيما وضع اسما الفاعل والمفعول.[٢٩]

أما أن أكثر القدماء من العلماء لم ينصبوا على مثل هذا، فلأنهم كانوا لا يفرقون بين المسائل الأعرابية، والمسائل

الصرفية، فاكتفوا بذكر بعض الأبواب التي تجزئ عما سواها. وانداج التصريف في الإعراب مجمع عليه لم يختلف فيه اثنان[٣٠].

فإذا انتهيت إلى هذا، وقررت أن نشأة الصرف كانت في القرن الأول الهجري اعترضني إشكال يثيره مجلس اليزيدي مع علي ابن الحسن الأحمر.

قال أبو محمد اليزيدي:[٣١] كنت جالسا مع الفضل، فقال لي الفضل: من كان أعلم بالنحو، الكسائى أو أبو عمرو بن العلاء ؟ فقال الأحمر: لم يكن بعرف التصريف...!

فقلت له: ليس التصريف من النحو في شيء ! إنما هو شيء ولدناه نحن، واصطلحنا عليه وكان أبو عمرو أنبل من أن ينظر فيما ولد الناس.

فإذا أخذنا بظاهر هذه الرواية كانت نشأة التصريف في النصف الأول من القرن الثاني، لأن أبا محمد اليزيدي توفي سنة (٢٠٢ هـ) بعد أن بلغ من السن دون المائة بأعوام يسيرة[٣٢]. وهو في طبقة النضر بن شميل، وسيبوية، والأخفش الأوسط[٣٣].

وحسبي ههنا الإشارة إلى أن عبد الله بن أبي إسحاق، المتوفى سنة (١١٧هـ)، كان قد أملى كتابا في الهمز، وناظر أبو عمرو بن العلام في هذا الموضوع قبل أن يبلغ اليزيدى وطبقته الحلم.

واليزيدى إنما يريد تلك التفريعات التي نشأت في عصره (جدت في حياة طبقته) من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء، وتلاميذ معاصرية، وربأ بأستاذه أبي عمرو أن ينظر فيها بعد أن جاور البدو أربعين سنة، وأخذ عنهم علمه وإلا فليس من الحق أن ينعى على إنسان جهله بعلم لم يوجد بعد.

وإن أردت الدقة في التحديد، فإن ما قصده اليزيدى هو مسائل التمرين، ولذا تراه ينفى عنه أن يكون ذا قيمة في الصرف، ويجعله مما ولده الناس، وترفع عنه أبو عمرو.

وقد رأيت فيما مضى أن التصريف هو مسائل التمرين وفي هذا كله تحقيق ما ذكرته قبل، وهو أن هذه المسائل أحدثت في أوسط القرن الثاني.

ومن هذا كله يتبين لنا أن خاتم الخلفاء الراشدين، وأبا الأسود الدؤلي هما للذان وضعا أصول علم العربية، ومنها علم الصرف. فقد احتدى أبو الأسود الدؤلي الأصول التي وضعها له الإمام في تعليقته، أو صحيفته. فكان كلما وضع بابا جديدا عرضه عليه، حتى حصل في كتابه المختصر ما فيه الكفاية، وبذلك استحق أن يكون كما قال ابن سلام[٣٤] : أول من استن العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها ثم اختلف إليه الناس، ففرع لهم سبيلها.

ثم كان بعده تلاميذه، فتعمقوا في تلك الدراسات، وطولوا الأبواب[٣٥].

وبعد هذه النشأة البسيطة، استطاع علم الصرف أن يجد له أنصارا من العلماء يحرصون على رعايته، والعناية به، ومتابعه مسائله، وتحديد دائرته التي يختص بها.

وإذ ذاك بدأ هذا العلم ينحومى جديدا، تلمع فيه بوادر الاستقلال والتميز، بحيث يختص بكتب تكون مقصورة عليه منها كتاب التصريف لأبي عثمان المازني، وآخر للفراء، أبي الحسن الأحمر.

الخاتمة

وكانت علوم اللغة العربية، وعلى رأسها علما النحو والصرف اللذين تبنى عليهما كل العلوم. وكان الهدف من دراستها هو تربية الملكة العربية السليمة التي تجعل غير الفصيح ينسج على منوال الكلام الفصيح.

الأسباب التي دعت إلى نشأة علم الصرف هي شيوع اللحن في بنية الكلمة، واعتزاز العرب بلغتهم اعتزازا شديدا، وإحساس الشعوب المستعربة بالحاجة الشديدة لمن يرسم لها أوضاع العربية والمناظرات والمحاورات التي كانت تثار في مجالس العلماء والولاة، ورقى العقل العربي ونمو طاقته الذهنية.

اختلف العلماء كثيرا في تحديد نشأة علم الصرف. ولكن بعض العلماء ذهبوا إلى أن واضع علم الصرف هو معاذ بن مسلم الهراء، وقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود الدؤلي

اول من وضع العربية وأن الخليل بن أحمد اول من تكلم في العروض.

هوامش البحث

١) عيون الأخبار ٨١١/٢

٢) المصدر السابق

٣) الكامل للبرد ٢٤١/١، وأخبار بعضهم أن يقال: للأنثى: ضبعة لسان العرب ٤/ ٢٥٥٠، "ضبع"، وتاج العروس ٥/ ٤٣٧ – ٤٢٦ "ضبع"

٤) الأشباه والنظائر، ٨/١

٥) نزهة الألباه/ ٥-٦

٦) طبقات فعول الشعراء ١٢/١

٧) مرتب النحويين

٨) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١/ ٤١، وطبقات النحويين واللغوين/ ٢٢، والفهرست/ ٤٠

٩) البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر ص. ٤٥

١٠) الآية (١٢١) من سورة طه

١١) زاد الزجاجي في أمالية، ص. ٥٩: "هلا قالو: حصناني كما قالوا "بحراني" وينظر: مجالس العلماء ص. ٣٢٠

١٢) كذا ذكره الزجاج في الامالى ص. ٥٩، والسيوطي في الأشباه والنظائر ٥٦٩/٣، لعمر بن بزيع، وما ثبت في الأغانى هو الصواب، كذا في لسان الميزان ٢٨٦/٤

١٣) الأباه والنظائر ٧٢/٣، ومجالس العلماء ص. ٢٢٠ – ٢٢١

١٤) البيان والتبيين ٢٢٠/٢ وعيون الأخبار ٢/ ١٥٧

١٥) الصاحبى ص. ٨ – ١١، وعيون الأخبار ١٥٧/٢

١٦) الاقتراح ص. ٨٥

١٧) المزهر ٤٠٠/٢

١٨) طبقات النحويين ص. ١٢٥-١٢٦. وأبا جادها: أوائل حروف الهجاء يزيد: لم تحس0ن معرفة ما هو يسير منها فكيف بالعسير الشديد.

١٩) الآية (٨٣) من سورة مريم

٢٠) الآية (٨) من سورة التكوير

٢١) بغية الوعاة ١٩٦/٢، ومجالس العلماء ص. ١٤٥، والمنصف شرح تصريف المازنى ٢٨٥/٣. وجواب المسألة يا أز، وإن شئت أز، وإذ شئت أوزز. فالفتح لأنه أخف الحركات، والكسر لأنه أحق ببالتقاء الساكنين، والضضم للاتباع، كذا: يا وائد أد. مثل: يا واعد عد، ويراجع: شد العرف في فن الصرف ص. ١٩ ومفتاح السعادة: ١/ ١٢٥-١٢٦

٢٢) هذه هي عبادة الزبيدى كما جائت في طبقات النحويين ٢ / ١٢٥، وكذلك ذكرها القفطى في إنباه الرواة ٣/ ٢٩٦، غير أن السيوطى أثبتها "فلما أحدث التصريف" بالبناء للمجهول، ويراجع بغية الوعاة ٢/ ٢٩٠

٢٣) مجالس العلماء ص. ١٤٥

٢٤) معجم الادباء ٣٩٠/٣، ومفتاح السعادة ١٩٣/١

٢٥) انباه الرواة ٣٩٠/٣، ومفتاح السعادة ١٢٦/١

٢٦) أمالى الشيخ علي عبد الزاق ص. ١٠ وابنية الصرف في كتاب سيبوية ص. ٢٨

٢٧) وإنباه الرواة ٧/١-٩، والايضاح في الوقف والابتداء ص. ١٦-١٧ والخصائص ٢/ ٧-٩، و ٣-٣١، والفهرست، ص. ٣٩-٤١، ومراتب النحويين ص. ٢٤

٢٨) الأشباه والنظائر ٧/١-٨، وأمالى الزجاجى ص. ٢٣٨-٢٣٩ وإنباه الرواة ١/ ٣٩

٢٩) الأشباه والنظائر، ٣/ ٢٥٦-٢٥٧

٣٠) أبنية الصرف في كتاب سيبوية ص. ٢٧، وكشف الظنون ٢٨٨/١، ومدرسة الكوفة ص. ٩٨، ومفتاح السعادة ١١٣/١

٣١) مجالس العلماء ص. ١٨١-١٨٢

٣٢) وفيات الأعيان ٢٣٦/٥

٣٣) طبقات النحويين ص. ٦١-٧٢

٣٤) طبقات فحول الشعراء ١/ ١٢

المراجع

أبو حيان التوحيدى وأحمد آمين، الإمتاع والمؤانسة، ط، لجنة التأليف، سنة ١٩٣٩هـ

أبو الفتح عثمان بن جنى، العصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب – مصر، ١٩٥٦م

أحمد يحي ثعلب، المجالس، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٤٨م

أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار النهضة.

ابن جنى، المنصف شرح تصريف المازني، تحقيق إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، دارة احياء التراث القديم، الاولى، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م

ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق عبد السلام هارون، مصر الخانجى

خديجة الحديثى، أبنية الصرف في كتاب سيبوية، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٧٥م

الزجاج، مجالس العلماء، تحقيق عبد السلام هارون، الكويت: --، ١٩٦٢م

----، الأولى، تحقيق عبد السلام هارون، الكويت، المؤسسة العربية، ١٣٨٢ هـ

السيوطى، الأشباه والنظائر، تحقيق عبد الرؤوف سعد، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٥/١٩٧٥م

----، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد قاسم، مصر، السعادة، ١٣٩٦/١٩٧٦م

----، المزهر في علوم اللغة وأنوعها، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار النهضة.

----، همع الهوامع، مصر، مكتبة السعادة، ١٣٢٧هـ

الشيخ أحمد الحملاوى، شذ العرف في فن الصرف، ـــ، المكتبة التوفيقية، ١٩٥٢م

محمد بن سلام الجمحر، طبقات فخول الشعراء، القاهرة، دار المعارف

محمد بن الحسن الزبيدى، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف

Yuyun Rohmatul Uyuni adalah dosen Studi Bahasa Arab pada STAIN "Sultan Maulana Hasanuddin" Serang, Banten.